مجمع اللغة العربية بدمشق

المؤتمر السنوي التاسع

الكتابة العلمية باللغة العربية

المحاضرة الافتتاحية

العربيةُ لغةً للكتابة العلمية

الدكتور محمد هيثم الخيّاط

دمشق

٢٢- ٢٥ ذي الحجة ١٤٣١هـ

٢٨ تشرين الثاني - ١ كانون الأول ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

العربية لغةً للكتابة العلمية

الدكتور
محمد هيثم الخياط

يقول ربُّنا عَزَّ وجَلَّ في مطلع سورة الرحمن:

﴿خَلَقَ الإنْسَانَ: عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾

وقد قال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ البيان﴾ ولم يَقُلْ: ﴿وعلَّمه﴾، تفسيراً لقوله: ﴿خَلَقَ الإنْسَان﴾، تنبيهاً — كما يقول الراغب الأصفهاني - على أنَّ خَلْقَهُ إيَّاه هو تخصيصُه بالبيان، الذي لو تُوُهِّمَ مُرْتَفِعاً، كانت الإنسانيَّةُ مرتفعة..."

وصَدَق والله ! فلولا "البيان" لكان "الإنسان" خَلْقاً غيرَ هذا الخَلْق، ولولا قُدرتُهُ على اجتياز مِحْنةِ "البيان" أي محنة اللغة التي لا تكاد تستقر حدود ألفاظها، ولا حدود جُمَلها، لَوَقَعَ في دَمَار اليأس من اللغة وقدرتها على الإبانة عن نَفْسِه، ولَهَوَى في هُوَّة الشكِّ في هذه الأداة، وفي نَفعِها لما يريده من الإبانة عن معانيه. فالحضارةُ كلُّها، والثَّقافَةُ كلُّها، بعلومها وآدابها وفلسفتها، عالَةٌ على "الكلمة". فلولا "الكلمة" لما كان لشيء من ذلك كلِّه وجودٌ يُعْقَل !

وإنَّما أعني بالحضارة ذلك البناء المتكامل، الذي لا تستحقُّهُ أمةٌ إلا بعدَ أن تجتاز مراحلَ كثيرةً معقَّدةَ التركيب، حتى تنتهي إلى أن يكون لأهلها سلطان على الفكر، وعلى العلم، وعلى عمارة الأرض، وعلى أسباب هذه العمارة من صناعة وتجارة، وعلى أسباب كثيرة من القوة، تُرغِمُ سائرَ الأمم على الاعتراف لها بالغَلَبة والسيادة. وقد وَقَعَ أهلُ زماننا على اصطلاح سمَّوا به هذه المراحلَ الكثيرة المعقّدة التركيب، وهو لفظ "الثقافة".

... الثقافةُ التي هي تلك الأصولُ الثابتةُ التي تَنْغَرِسُ في نفس "الإنسان" منذُ مولدِهِ ونشأتِهِ الأولى، حتى يُشَارِفَ حدَّ الإدراك البيِّن، جِمَاعُهَا كلُّ ما يتلقَّاهُ عن أبوَيْهِ وأهلِهِ وعشيرتِهِ ومعلميه ومؤدِّبيه، حتى يصبح قادراً على أن يَسْتَقِلَّ بنفسه. فإذا استقلَّ، استبَدَّ عقلُهُ بتقليبِ النظر، وإعمالِ الفكر، وممارسةِ التنقيبِ والبحثِ، ومعالجةِ التعبيرِ عن الرأي. وللُّغة دورُها الأكبَر في ترسيخ الأصولِ التي تَنْغَرِس، وإيصالِ المعارفِ الأولى التي تُعِينُ على التَوَاصُل. وثقافةُ الأمةِ التي هي ذلكَ القَدْرُ المشتركَ من ثقافاتِ أبنائِها، أيضاً، وهي مرآةٌ جامعةٌ، في حيِّزها المحدود، كلَّ ما تَشعَّثَ وتَشَتَّتَ وتباعَدَ من ثقافةِ كلِّ فردٍ من أبنائها، من أفكار وقيَم ومبادئ وسلوك، على اختلافِ مقاديرِهِم ومَشارِبِهم ومذاهِبِهم ومَدَاخِلِهم ومخارِجِهم في الحياة. وجَوْهَرُ هذه المرآة أيضاً هو اللُّغَة.

ثم الحضارةُ التي هما المظهر المادي لهذه الثقافة، بالاستفادة من مُعطيَات العلم والتقانة لعمارة الأرض والارتقاء بالوضع المعاشي للإنسان.

*

والنظرُ يوجبُ أن يكون أوَّلُ "البيان"، أي أوَّلُ اللغة التي يُبينُ بها الناس عمّا في أنفسهم، مضبوطاً صحيحَ الحدود ظاهرَها، لا يكاد يكون فيها اختلاف يُذكَر. ثم يتوارثُ اللّغَةَ جيلٌ بعد جيل، يستخدمها لمعان متجددة بتجدّد إدراك النفس المبينة لأسرار ما يحيط بها يوماً بعد يوم، فتحملها إرادة البيان عن جديدِ ما انفَتَحَ لها، على أن تتخيَّر "لفظاً" تُرَكِّبُه في جملة، لتمنح هذا اللفظ طَرَفاً من المعنى الجديد، يلحق معناه الأوَّل، ويزيد فيه ما لم يَكُنْ. ثم يمضي "اللفظ" في اللغة مركَّباً، حتى ينفصل عن التركيب الذي أحدث له معنى لم يَكُنْ فيه، ثم يستقلّ بَعْدُ حاملاً معنى زائداً، مركَّباً من المعنى الأول، والمعنى الجديد.

*

وهذا أشبه شيء بما نسميه في العربية "المجاز"، أي اجتياز معنىً حادثٍ إلى معنى قديم في اللفظ. وتكثُرُ المعاني الحادثة، وتَتَلاَحَقُ على اللفظ الواحد، فربما انتهى

الأمر إلى "لفظ" تَرَاكَمَتْ عليه معان حادثةٌ متجدِّدة، تجمع بينها روابط قريبةُ المنال، وروابط بعيدةُ المطلب؛ ولكن "اللفظ" يبقى لفظاً كسائر ألفاظ اللغة، يتكلم الناس به، ويستعملونه في بيانهم وإنَّما ينشأ الغموض والإبهام، من عدم القدرة على بلوغ كُنْهِ هذه الروابط القريبة البعيدة. والناسُ، مُذْ كانوا، لايزالون يختلفون على معاني الألفاظ.. يختلفون عليها وهم يستعملونها ساعة بعد ساعةٍ ويوماً بعد يوم، ويختلفون أيضاً على الجُمَل المركَّبةِ من هذه الألفاظ، وهي تجري مركَّبةً على ألسنتهم في حال بعد حال، وفي حديثٍ بعد حديث. ولم يمنعهم اختلافُهُمْ على معاني الألفاظ ودلالات الجُمَل، من أن يفكِّروا باللغة التي لا تستقرُّ حدودُ ألفاظها ولا حدودُ جُمَلها، ولا من الإبانة بهذه اللغة التي لا تستقرُّ حدودُ ألفاظها ولا حدودُ جُمَلها. بل لم يمنعهم هذا الاختلاف أيضاً من التفاهم بهذه اللغة التي لا تستقر حدود ألفاظها ولا حدودُ جُمَلها.

*

ولغتنا العربية من أقدم اللغات الموجودة على ظهر الدنيا الآن، وهي إلى قِدَمها هذا تُعدّ اللغة الوحيدة التي حافظت على خصائصها الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية. والذين يعرفون تاريخ اللغة الإنكليزية – وهي اللغة الأكثر شيوعاً الآن – يدركون تماماً الفرق بين الإنكليزية الآن، والإنكليزية التي كتب بها أديبهم الكبير (وليم شكسبير) 1564–1616م. فلغةُ هذا الشاعر العظيم والكاتب المسرحي الكبير تَخفَى على كثيرٍ من الإنكليز المعاصرين، على قُرْب عهده وزمنه، فإن نحو أربعة قرون لا تعدّ شيئاً مذكوراً في تاريخ اللغات.

وإنما حافظت هذه اللغة العربية على خصائصها في البنية والصوت والمعجم؛ لأنها ارتبطت بالدين ارتباطاً شديداً، وكان لنزول القرآن الكريم بها – وهو أكبر حدث في تاريخ المسلمين – أثرٌ ضخم في تثبيتها في عقول الناس وجَرَيانها على ألسنتهم. ولاسيَّما أن لغة القرآن الكريم لم تكن مجرّد لغة تَعَبُّدِيَّة يتلوها الناس في صلواتهم.. ثمَّ يهجُرونها في حياتهم ومخاطباتهم. فالقرآن – كما قال أديبُ العربية الأكبر

مصطفى صادق الرافعي رحمه الله - "يدفع عن هذه اللغة العربية النسيان الذي لا يُدفع عن شيء.. وهو وحدَه إعجاز".

والقرآن نزل بلسان عربي مبين، ويستوي في معرفة ذلك اللسان كلٌّ من نزل عليهم ذلك الكتاب الحكيم. وحتى هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجاً من غير أبناء ذلك اللسان العربي، سَرعانَ ما نسوا لسانهم الأول، بعد أن اندمجوا في هذا الدين، واتخذوا العربية أداة فكرٍ وبيان.

ثم تمضي الأيام بهذه العربية، يتكلّم بها الناس، ويسجّلون بها خواطرَهم ومَشَاعِرَهم، ويدوِّنون بها علومَهم ومعارفَهم وألوان حضارتهم. ويُداولُ الله الأيامَ بين الناس، فتتهاوى عروش، وتقوم عروش، وتسقط دول، وتنهض دول، وكان ما كان مما أراده ربُّك من كَبَوَات هذه الأمة العربية: سياسةً وحُكماً ونفوذاً، ولكن لغتها بقيت حيث هي: موفورةً لم تُنتقَص، عاليةً لم تَنْحَنِ، سليمةً لم تنكسر. ثم تتعرَّض هذه اللغة — شأن سائر اللغات، وشأنَ كل كائن — لشيء من التطور، في أصواتها ودلالتها، وشيوع بعض التراكيب في وقت، وانحسارها في وقت.

والتطوُّر الدلالي والأعرافُ اللغوية مما تنبَّه له القدماء ونصُّوا عليه. ولكنَّ التطوُّر في اللغة العربية كان أمراً غريباً حقاً ! إننا ننظر في عربية الشعر الجاهلي، ثم ننظر في عربيتنا الآن، فلا نجد فرقاً إلا في بعض الغريب، وهو اللفظ الغامض البعيد من الفهم، الذي يُدرَك بالرجوع إلى أقرب معجم. فحروف المباني، وحروف المعاني، وأبنية الأفعال، والأسماء، والمثنى والجموع، وعلامات التذكير والتأنيث، والمصادرُ والظروفُ، وسائرُ المشتقات، كلُّ ذلك واحدٌ لا يختلف في غابر العربية وحديثها. ثم نقرأ لامرئ القيس:

ولو أنها نفسٌ تموت جَمِيعةً ولكنها نفسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسا

فنراه شعراً عذباً صادقاً لشاعر يتعذّب، وكأنه يعاني من الموت البطيء؛ وقد تقسَّمت نَفْسُه إلى أنفُس، تموت واحدةً تلو أخرى. ثم نقرأ قوله:

أُرانا مُوضِعينَ لأمرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

فإذا بنا أمام شاعر حكيم، يقول: إننا نُوضِع – أي نُسرع – لأمر غريب، وهو الموت الذي نصير إليه جميعاً، وقد غُيِّب عنا وقتُه المحتوم، ومع هذا فنحن نُخْدَع ونُلْهَى بمتاع الدنيا من طعام وشراب. وفي هذه القصيدة يأتي بيته الشهير:

وقد طوَّفْتُ بالآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

فأيُّ فرق بين كلام امرئ القيس هذا الجاهليّ، وبين كلامنا ؟

بل نرجع إلى من هو أعرق من امرئ القيس في الجاهلية، وهو الأضبط بن قُريع السَّعدي، الذي كان قبل الإسلام بنحو خمسِ مئة سنة. يقول الأضبط هذا في قصيدة حكيمة:

لكلِّ هَمٍّ من الهُموم سَعَهْ والمُسْيُ والصُّبحُ لا فَلاحَ مَعَهْ
فَصِلْ حِبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الحَبْـ ـل وأقْصِ القريبَ إن قطعَهْ
وخُذْ من الدهرِ ما أتاكَ به مَنْ قَرَّ عَيناً بعيشِهِ نَفعَهْ
لا تَحْقِرَنَّ الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ تركعَ يوماً والدهرُ قد رفعَهْ
قد يجمعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جمَعَهْ
ويَرْقَعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ ويلبَسُ الثوبَ غير مَنْ رقعَهْ

فهذا – كما قال أخونا محمود الطناحي رحمه الله – شعرٌ شجيُّ النغم، عميقُ الحكمة، يتولَّجُ في القلب تولُّجاً، وينصبُّ في السمع انصباباً، وليس فيه من اللفظ الغريب علينا إلا قوله "لا فَلاحَ" وهي هنا بمعنى البقاء. يقول: والمساء والصباح رائحان وغاديان، لا يَبْقيان على حال. وهذا شعرٌ عمره خمسُ مئة سنة قبل الإسلام.

بَلْ لنقرأْ ما قد يكون أقدم ما وصلنا من شعر الجاهلية، وهو قولُ الشاعر الملك جَذِيمةَ الأبرش الوضَّاح:

رُبَمَا أوْفَيْتُ في عَلَمٍ ... تَرْفَعَنْ ثَوبي شَمَالاتُ
في فُتوٍّ أنا كالِئُهُم ... في بَلاَيَا غَزْوَةٍ باتُوا
ثُمَّ أُبْنا غَانِمِينَ معاً ... وأُناسٌ بعدَنا ماتُوا
نحنُ كُنَّا في مَمرِّهِمُ ... إذْ مَمرُّ القومِ خَوَّاتُ
ليتَ شِعْري ما أمَاتَهُمُ ... نحن أدْلَجْنَا وهُمْ بَاتُوا

ولأتوقَّفْ هنا ! فلست أدري كيف جَمَحَ بيَ القولُ والقلمُ كلَّ هذا الجموح.. ولكن الحديثَ عن البيان مُمْتِعٌ مُسْتَطَاب، ومزاولةَ ذلك أمتَعُ وأطْيَب.. ولكنك إذا أردتَ أن تقول للناس كيف تصنعُ ذلك، ضاقَتْ عليك سُبُل القول، وانسدَّت عليك مشارعُه، كالذي يُحسِن المشيَ عُمُرَه كلّه، فإذا قلتَ له: "صِفْ لي كيف تمشي"، تبكَّمَ فلم يَدْرِ ما يقول !

فاعذروني إذا رأيتم في مقاليَ هذا غيرَ قليلٍ من التَبَكُّم !

*

نشرتُ قبلَ خمسين سنة، كتاباً لي في ثمانين وأربعمئة صفحة أسميتُه "الكيمياء السريرية العامة"، وحاولتُ فيه أن أجدَ أو أضَعَ لكل مصطلحٍ أجنبي مصطلحاً عربيَّ النِجَار يقابله. وقد كان ذلك غايةً في المشقة، ولاسيَّما في ميدان الكيمياء وهو ميدانٌ عسير الارتياد. ثم كان أن أَعَدْتُ قراءة بعضِ ما كتبتُ فاستعجمَ عليَّ.. وإذا بيَ في هذا الكتاب قد نسيتُ أنّي أكتُبُ للناس، وظَننتُ أنها مجرَّدُ مذكرات لي أحرص فيها شديد الحرص، لا على مجرد فصاحة الكلمة، وإنّما على استعمال اللفظة التي هي أفصح بين فُصْحَيَيْن، وتفضيل الألفاظ الوعرة المُسْتَعْسِرَة ظنّاً مني أنها كلّما ازدادت غرابتها، دلّ ذلك على عراقَتها وأصالتها !

ثمَّ ما لبثتُ أن صَحَوْتُ وتنبَّهت.. وذكرت قوله عزّ وجل: ﴿يريد الله بكم اليُسْر ولا يريد بكم العُسْر﴾ وقول النبي عليه الصلاة والسلام: "يَسِّروا ولا تعسِّروا،

وبشِّروا ولا تنفِّروا".. فعلمتُ أن الأحرى بي أن أهتدي بهذا الهَدْي الكريم، فلا أستعمل من الكلام إلا أيْسَرَهُ وأسهله، وأبتعدَ ما استطعت عن غريب الكلام ومُسْتَصْعَبه، وعمّا ينفر الناس من القراءة ويصدُّهم عنها. وأقتديَ بأولئك الكُتَّاب الذين ما رأى "الجاحظ" أمْثَلَ طريقةً منهم كما يقول: "... فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً حوشيّاً، ولا ساقطاً سوقيّاً". وبأولئك الذين قال عنهم ابن الأثير [في المَثَل السائر] ".. إنّهم غربلوا اللغة وانتقوا منها ألفاظاً رائقة استعملوها".

ثُمَّ ذكرتُ أنَّ للموضوع بُعْداً تربوياً لا يقلُّ عمَّا تقَدَّمَ شأناً وخطراً. فلو أنَّ سائلاً سألَكَ: ما القراءة ؟ لكانَ جوابُك: إنها الفَهْمُ والاستيعاب. فليستِ القراءةُ مجرَّدَ عمليةٍ بصرية، ولكنَّها كما يقول كارول Carroll "عمليةٌ تتطلَّبُ معلوماتٍ مرئية ومعلوماتٍ لا مرئية non-visual. أما المعلوماتُ المرئيةُ فتأتي من الصفحة المطبوعة، وأما المعلومات اللامرئية فتأتي من الدِّماغ". وهذه المعارفُ اللامرئيةُ، تتمثَّل في حقيقةِ الأمرِ في نوعَين من المعارف، يَستَمِدُّ القارئُ معظمَها من ثقافتِه، ونعني بهما: تلك التي اختزَنَها المرءُ منذ صِغَرِه، وأضافَ إليها من تجاربِه وتَعَلُّمِه، وتلك المتعلقةُ بالنظامِ اللغويِّ لديه. فما يُضْفيه القارئُ على النصِّ من خِبْرَتِه التعلُّمية، يُحدِّدُ إلى حدٍّ بعيد ما سوف يَكْتسِبُهُ هذا القارئ من النصِّ الذي بين يدَيه. فالمعنى – كما يقول أوغْستاين وتوماس Augstein & Thomas – "ليسَ موجوداً على الصفحةِ بنفسِه، ولكنَّهُ يتولَّدُ عليها من مادَّة خام، مُسْتَقاةٍ من خبرات القارئ". وهذا التولُّدُ – كما يقول ويدوسون Widdowson – "عمليةٌ ديناميكيةٌ، تَتَخلَّقُ فيها المعاني أولاً بأوَّل".

والذي يَدْرُسُ نصَّاً علمياً مكتوباً بلغة عسيرة، يتعامَلُ مع مفرداتِ النصِّ مُفْرَدةً مُفرَدَة، باذلاً جُهْدَهُ في فهمِ كلٍّ منها على حدة، بغضِّ النظر عن سياقِها. فهو ينصرفُ إلى دراسةِ تفاصيلِ العبارة، ولكنه يُخْفِقُ في أن يَسْتَخْرِجَ المعنى الكامِنَ في الجملةِ ككُلّ.. ويزيدُ الأمرَ سوءاً، أنَّ مثل هذا الدارس يكونُ بطيءَ القراءةِ من جرَّاء ذلك، وذلك ضَرْبٌ جديدٌ من الإعاقة يَنْضافُ إلى ما سَبَق. والحقُّ أن إجهادَ الذِهْنِ

في فَكِّ الحرفِ – إنْ صَحَ التعبير – ينوءُ بالذاكرةِ القصيرةِ الأمد، وبذلكَ يخرُجُ القارئُ من قراءتِهِ كأنْ لم يقرأ.

*

والأمرُ نفسه ينطبق على الترجمة. فالمقصودُ من الترجمةِ أن تَنْقُل المعلومةَ نقلاً أمينا مفهوماً، وإلا كانَ ضرَرُها أكبَر من نَفْعِها. وإنَّا لنَرَى كثيراً ممَّن يُترجِمُ في عصرنا هذا يكونُ أميناً في نقلِه، ولكنه يترجمُ ترجمةً حرفيةً تجعلُ المعنى يَسْتَبْهِمُ في أفهامِ القرَّاء. ومنهم مَنْ يكتبُ ترجمتَهُ بلغةٍ سَلِسَة مفهومة، ولكنَّهُ لا يكونُ أميناً في نقلِه، ويَقْفِزُ، ويُغْفِلُ كثيراً مما وَرَدَ في النصِّ الأصلي. وكِلاَ المترجمَين بعيدٌ كلَّ البُعْدِ عن ما ينبغي أن يكون. فلابُدَّ للترجمة المستهدَفةِ إذن من أن تَكفُلَ الأمرَيْن جميعاً، أعني الأمانةَ والإفهام. ومن قَبْلُ قال الجاحظ: "ولابدَّ للترجُمان مِنْ أنْ يكونَ بيانُهُ في نفسِ الترجمة، في وزنِ علمهِ في نفسِ المعرفة، وينبغي أن يكونَ أعلمَ الناسِ باللغةِ المنقولَةِ والمنقول إليها، حتى يكونَ فيهما سواءً وغاية"..

واقرأ إن شئت معي نماذج بما كَتَبَ علماؤنا الأقدمون.

هذا مثلاً عليُّ بن العباس في كتابه "كامل الصناعة" يقول في مطلع كتابه:

"إن **الطب** ينقسم قسمَيْن، أحدُهما العلم والآخر العمل. و**العلمُ** هو معرفةُ حقيقةِ الغَرَض المقصود إليه موضوعُه، في الفكر الذي به يكون التمييز والتدبير لما يُراد فعله. و**العملُ** هو خروج ذلك الشيء الموضوع في الفكر، إلى المباشرة بالحس والعمل باليد، على حسب ما اتَّفق عليه التمييز. و**العلمُ** ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **أحدها**: العلم بالأمور الطبيعية؛ و**الثاني**: العلم بالأمور التي ليست بطبيعية؛ و**الثالث**: العلم بالأمور الخارجة عن الأمر الطبيعي. فأما **العمل** فينقسم قسمَيْن: **أحدهما** حفظُ الأصحّاء على صحتهم، و**الثاني** مداواة الأمراض. و**حفظُ الصحة** ينقسم ثلاثة أقسام: **أحدها** حفظُ صحة الأبدان التي لا يُذَمُّ من صحَّتها شيء، و**الثاني** حفظ صحة الأبدان التي قد بدأت تحيد عن حال الصحة، و**الثالث** حفظ الأبدان الضعيفة وهي أبدانُ الأطفال، وأبدانُ المشايخ، وأبدانُ الناقهين من المرض. و**مداواةُ المرض**

تنقسم قسمين: **أحدهما** المداواة التي تكون بالتدبير بالأغذية والأدوية، **والثاني** العمل باليد".

فهل ترى ما ألطَفَ هذه القسمة وما أوجَزَها وما أوضَحَها.

بل اقرأ قوله:

"فأما النخاع فمتى وقع به قطعٌ أو فسْخٌ في طوله لم يضرَّ ذلك بحركته. ومتى وقع قَطعٌ في العَرْض، بَطَلَ الحس والحركة من الأعضاء التي تأتيها الأعصاب من أسفل الموضع المقطوع، وتبقَى الأعضاء التي فوق ذلك الموضع سليمة الحس والحركة.

فهل في هذه اللغة المكتوبة قبل ألف عام، بُعْدٌ أو غُرْبَةٌ عن اللغة التي نكتب بها اليوم ؟

بل اقرأ استطرادَه إلى أمر من أمور الفيزياء، ساقَهُ إليه الحديث:

"والجَذْبُ يكون على ثلاثة أوجُه: أحدُها **باضطرار الخلاء** والاتِّباع لما يُستفرَغ، بمنزلة ما يعرض إذا امتصَّ الإنسان أنبوباً قد وُضع في الماء، فإن الماء يدخل في الأنبوب بسبب خُلُوِّ الأنبوب من الهواء. والثاني الجذبُ الذي يكون **بالحرارة**، بمنزلة جَذْب النار التي في السراج للزيت. والثالث الجذبُ الذي يكون **بقوة جاذبة طبيعية**، بمنزلةَ جذب الحجر المغناطيس للحديد.

*

ثمَّ اقرأ نموذجاً ممَّا كَتَبَهُ ابنُ سينا في "القانون" عن مجموعة من العوامل في الإنسان والبيئة، أطْلَقَ عليها اسم "الأسباب المغيِّرة أو الحافظة لحالات بدن الإنسان" وأدرج فيها العوامل التالية:

".. الأهوية وما يتصَّل بها، والمَطَاعم [أي: الأطعمة]، والمياه والمَشَارب وما يتَّصل بها، والاستفراغ والاحتقان، والبُلدان، والمَساكن وما يتَّصل بها، والحركات

والسكونات البدنية والنفسيَّة ومنها النوم واليقظة، والاستحالة في الأسنان [أي: الأعمار]، والاختلاف فيها وفي الأجناس، والصناعات، والعادات.."

وقد قال عليُّ بن العبَّاس عن هذه الأسباب:

"وذلك أن هذه الأمور متى استُعمِلَتْ على ما يجب أن يُستعْمَل، وعلى حسب الحاجة إليها في كلِّ واحد من الأبدان، في الكمية والكيفية والوقت والترتيب، حفِظت الأمور الطبيعيَّة على حالها ودامت بذلك صحةُ البدن !"

وعندما شرع ابن سينا يفصِّل القول في هذه الأسباب، بدأ بالهواء فعرَّفَهُ أجمعَ وأدقَّ وأوجز تعريف فقال:

"نعني بالهواء الجسمَ المبثوثَ في الجوّ وهو جزءٌ ممتزج من: (1) الهواء احقيقي؛ ومن: (2) الأجزاء المائيَّة البخاريَّة؛ ومن: (3) الأجزاء الأرضيَّة المتصعَّدة في الدخان والغبار؛ ومن: (4) الأجزاء الناريَّة".

فهذا الكلام المكتوب منذ أكثر من ألف عام، لا يكاد يختلف عمَّا نقوله اليوم اللهم إلاَّ في بعض التعابير التي أضفى عليها التطوُّر معاني جديدة. فالهواء الحقيقي هو "الغازات الدائمة" بتعبيرنا، والأجزاء المائية البخارية تضمُّ بخار الماء وثاني أكسيد الكربون، والأجزاء الأرضيَّة المتصعَّدة في الدخان والغبار هي "الجسيمات المعلقة في الهواء"، والأجزاء النارية هي "الإشعاع" بتعبيرنا.

إلى أن يقول:

"والهواء مادام معتدلاً وصافياً، ليس يخالطه جوهرٌ غريبٌ مُنَافٍ لمزاج الروح، فهو فاعلٌ للصحة وحافظٌ إياها. فإذا تغيَّر فَعَل ضدَّ فعله ..."

ثم يُفصِّل في ذلك بعض الشيء فيقول:

"الهواءُ الجيِّد في الجوهر، هو الهواء الذي ليس يخالطهُ من الأبخرة والأدخنة شيء غريب، وهو مكشوف للسماء غير محقون بين الجدران والسقوف؛ اللهمَّ إلا في حال

ما يصيب الهواءَ فسادٌ عام، فيكون المكشوف أقْبَلَ له [أي: للفساد] من المغموم والمحجوب".

ثم حين يتحدث عن المياه يقول:

"إنَّ اختلاف المياه قد يُوقِع المسافر في أمراض أكثرَ من اختلاف الأغذية. فيجب أن يُراعى ذلك ويُتَدَارَك أمر الماء. ومن تَدَارُكِهِ كثرةُ ترويقه، وكثرة استرشاحِهِ من الخَزَف الرشَّاح. وطبخُهُ [أي: غَلْيُهُ]... قد يصفّيه، ويفرِّق بين جوهر الماء الصِّرف وبين ما يخالطُه، وأكثر ذلك كلهِ تقطيرهُ بالتصعيد ..."

أو اقرأ نموذجاً مما كَتَبَهُ ابن خلدون في "المقدِّمة":

".. ثمَّ انظُرْ إلى عالَم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدريج: آخِرُ أُفق المعادن متصل بأول أُفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متَّصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجَد لهما إلا قوة اللّمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات أن آخر أفق منها مستعدٌ بالاستعداد الغريب لأن يصير أوّل أفق الذي بعدَه. واتّسعَ عالمُ الحيوان وتعدَّدت أنواعُه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرويَّة، ترتفع إليه من عالم القِرَدَة [عالَم القدرة في النسخ المطبوعة من المقدمة] الذي اجتمعَ فيه الحسُّ والإدراك، ولم يَنْتَهِ إلى الرويَّة والفكر بالفعل، وكان ذلك أوّل أُفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا..".

هل يذكِّرك هذا الكلام بنظرية مشهورة، مازالت تتضارب فيها الآراء وتُسوَّد الصفحات ؟

ثم اقرأ معي – أخيراً – نموذجاً مطبوعاً في بيروت سنة 1877، مما كتبه الدكتور يوحنا ورتبات أستاذ التشريح والفيسيولوجيا في المدرسة الكلية السورية [الجامعة الأمريكية في بيروت الآن]، وقد نقلهُ – بعربيَّتِهِ هو – من الإنكليزية إلى العربية. يقول – في حديثه عن القلب – :

"القلبُ عضوٌ عضليٌّ أجوف، مقسوم بواسطة حاجز إلى تجويفَيْن أيمن وأيسر وكلٌّ من التجويفَيْن المذكورَيْن مقسوم إلى قسم علوي يقال له الأُذَيْن، وقسم سفلي يقال له البُطَيْن. ويستطرق الأُذَيْن إلى البُطَيْن بواسطة فتحة واقعة بينهما؛ غيرَ أنَّ للفتحة صماماً يُجبِرُ سيرَ الدم من الأُذَيْن إلى البُطين، ويمنع سَيرهُ في الجهة المخالفة. وعلى ذلك يكون في القلب أربعة تجاويف: أُذينان وبُطينان على شكل أنّ أُذين الشطر الواحد وبُطينه منفصلان بالكليّة عن أُذين الشطر الآخر وبُطينه. وتتصل الأذين اليمنى من الجهة الواحدة بأوردة المجموع العام، ومن الأُخرى بالبُطين الأيمن الذي يستطرق إلى الشريان الرئوي بواسطة فتحة لها صمام خاص بها. وتتصِّل الأذين اليُسرى من الجهة الواحدة بالأوردة الرئوية ومن الأُخرى بالبُطَيْن الأيسر الذي يستطرق إلى الأورطى بواسطة فتحة لها صمام كالشريان الرئوي. والأوُرْطَى المذكور يتفرَّع ويحمل الدم إلى جميع أجزاء الجسد".

*

وأنا أعتذر إليكم راجياً أن لا أكون قد أملَلْتكم بهذه المقدمة الطويلة، و"المَلَل من كواذب الأخلاق" – كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه – ولكني أُريتُ – وأرجو أن أكون مصيباً – أنني لابُدَّ أن أتطرَّق إلى قضيَّتَيْن اثنتَيْن، لهما أهمية قصوى عند الحديث عن الكتابة العلمية بالعربية، ألا وهما قضية المصطلحات، وقضية المستوى الصوابي.

ولستُ أدري السبب في أننا كلّما أردنا التحدُّث عن الكتابة العلمية بالعربية، قَفَزَتْ في وجهنا قضيّة المصطلحات. مع أن القضيَّة ليست قضيّة مصطلحات بقدر ما هي قضيَّة بيان. والمصطلحاتُ لم تكن حَجَرَ عَثْرَةٍ في سبيل هذا النقل. فكان النقَلَة يَسْتَعْربون ارتجالاً كثيراً من الألفاظ التي لم يكونوا يجدون لها مقابلاً عربياً. ولكن العلماء كانوا يتخلّصون شيئاً فشيئاً من كثير من هذه المعرَّبات المُرْتَجَلة كلما وجدوا لفظةً عاربَة تصلح لها. فقد قالوا "الأوُرْطَى" مثلاً ليقابلوا بذلك شريان الجسم الأعظم، ثم وجدوا أن "الأبهر" يصلح لتأدية هذا المعنى فأحلّوه محله. كذلك قالوا "الباريطون" لذلك الغشاء الذي يغلف أحشاء البطن ثم وجدوا أن لفظة "الصفاق"

تصلح لذلك فأحلّوها محلّه، بل دخلت لفظة الصفاق مُلَتَّنَةً في اللغات الأجنبية وبقيت مستعملةً فيها بهذا المعنى إلى عهد قريب فأنت تجدها هكذا "siphac" في طبعة معجم "دورلاند" قبل خمسين سنة، وفي شرحها: "اسمٌ للبريتوان لم يَعُدْ يستعمل".

وإنما صنعوا ذلك استئناساً بما ذكره أبو هلال العسكري في "التلخيص": "والكلمةُ الأعجميَّة إذا عُرِّبَتْ فهي عربية ! لأن العربيَّ إذا تكلَّم بها معرَّبةً لم يُقَلْ إنه يتكلم بالعجمية !". وقد أحسن في قوله هذا وأصاب، لله درُّه !

ولو أن هذا لا يعني الترحيبَ بالإكثار من هذه الكلمات التي لا تُواكبُ أمثلة كلام العرب، بل العكس هو الصحيح، لأن نقلها بهذه الأوزان الناشزة يجعل من العسير بل المتعذِّر أحياناً جمعَها والنسبةَ إليها والاشتقاقَ منها. فكلمة "كمبيوتر" العالميةُ مثلاً، لا يمكن أن تشتقَّ منها لو استعرَبَتها ما يقابل Computrized أو Computrization، ولذلك رجَّح الجمهور ترجمتَها بكلمات متعدِّدة، أشهرُها "الحاسوب" لأنك تشتق منها "مُحَوْسَب" و"حَوْسَبَة"، وهكذا.

بل إن بعضَ المشتغلين بالمصطلحات ليَرَى أن من الخير إلباسَ اللفظة المستعربة العباءةَ العربية — إن صح التعبير —، ومحاولةَ إيجاد وجه شبَهَ بينها وبين بعض الألفاظ العربية. فأنت حين تقول للقارئ العربي مثلاً، إن "فَ رَ سَ" في لسان العرب تعني "قَتَل"، وأنك تستطيع أن تشتقَّ منها على زِنَة "فَيْعول" فتقول "فَيْرُوس" لهذا الكائن الذي يسبِّب كثيراً من الأمراض القتَّالة، فإنك تجعله أكثرَ تقبُّلاً لهذا اللفظ وأكثر إيلافاً له ! ولكن شريطة أن لا يُفضيَ الأمر بنا إلى التنطُّع، فنكون كما قال "ابن السرَّاج" في رسالته عن الاشتقاق: "بمنزلة من ادَّعى أن الطيرَ وَلَدُ الحوت !".

"... فلا ضَيْرَ في التَّعريب — كما يقول الأمير مصطفى الشهابي رحمه الله — كلَّما مَسَّت الحاجة إليه، وكلَّما تعذَّر العثور على كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية، أو تعذَّر إيجاد كلمة عربية تفيد معناها، بوسائل الاشتقاق المعروفة". وقد سَمَحْتُ لنفسي أن أضيف إلى ذلك: ".. أو حين تكون الكلمة العربية المقترَحةُ أشدَّ عُجْمةً وغرابةً من الكلمة الدخيلة، أو يكون اللفظُ مما اشتَهَرَ وشاع استعمالُه، أو يكون من

الألفاظ التي تَعَوْلَمَتْ (أي اكتسبت صفة العالميَّة)، بدخوله كما هو في كلَّ لغات العالم أو جُلِّها.

ومادُمْنا في حديث المصطلحات. فلنذكر الضوابط التي التزم بها علماؤنا الأقدمون عندما نقلوا العلوم إلى العربية ثم عندما ألَّفوا بالعربية. فمما ساروا عليه:

(1) تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية، وتضمينها المعنى العلمي الحديث،

(2) اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معرَّبة للدلالة على المعنى الجديد،

(3) استعراب كلمات أجنبية وعَدُّهَا صحيحة.

ثم لنذكر بعض القواعد التي وضعتها مجامع اللغة العربية — ولاسيَّما مجمع القاهرة — لهذا النقل: (1) التوسُّع في المولَّد من الكَلِم، ولاسيَّما ذلك القسم الذي جرى فيه المولِّدون على أقيسَة كلام العرب، من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك، وحكمُهُ أنه عربيٌّ سائغ؛ (2) إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية — عند الضرورة — على طريقة العرب في استعرابهم؛ (3) الاتفاق على قياسية عدد من الصِّيَغ الاشتقاقية المهمة، كصيغة "فِعالة" للحِرَف أو شبهها، وصيغة "مَفْعَلة" للمكان الذي تكثر فيه الأعيان، وصيغَتَيْ "فُعال" و"فَعَل" للمرض، وصِيَغ "مِفْعَل" و"مِفْعال" و"مِفْعَلَة" ثم "فاعول" و"فعّالة" لاسم الآلة... وغيرها كثير؛ (4) إقرار قياسية المصادر الصناعية، بأن يُزاد على الكلمة ياء النسب والتاء؛ (5) إجازة الاشتقاق من أسماء الأعيان في لغة العلوم؛ (6) استعمال "لا" النافية مركّبة مع الاسم المفرد إذا وافق هذا الاستعمال الذوق و لم ينفر منه السمع؛ (7) جواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه؛ (8) تفضيل اللفظ العربي على المعرَّب القديم إلا إذا اشتهر المعرَّب، وتفضيل المصطلح العربي القديم على الجديد، إلا إذا شاع الجديد، وتفضيل الكلمة الواحدة على الكلمتَيْن فأكثر إذا أمكن، فإذا لم يمكن تفضّل الترجمة الحرفية؛ (9) وجوب الاقتصار بقدر الإمكان في

المصطلحات العلمية والفنية والصناعية على اسم واحد خاص لكل معنى؛ (10) ترجمة الدالَّة على التشبيه بالنسب مع الألف والنون ... وغير ذلك كثير.

ومن الواضح أن هذه القواعد وأمثالها قد أفادت كثيراً في توحيد المصطلحات، ويَسَّرتْ كثيراً على الباحثين والمترجمين في وجه هذا السيل من المصطلحات الجديدة التي تَنْهَمر وتَنْثال مع تقدُّم العلوم. ولو أن ذلك لا يعني ضرورة الالتزام التزاماً حتمياً أو ألفاظ متوعِّرة، تجعل الخروج على القاعدة من أوجب الواجبات. فقد دَرَجْنا مثلاً في مصطلح الطب على صيغة "فُعَال" مشتقة من الكلمة الأصلية للدلالة على الداء، وذلك في مقابلة الكلمات التي تنتهي باللاحقة "osis" بالإنكليزية أو "ose-" بالفرنسية، فقلنا: "الحُماض" اشتقاقاً من الحمض مقابل acidosis، وقلنا "الكُلاء" من الكلية مقابل nephrosis، وقلنا "الزُّراق" من الزُّرْقة مقابل cyanosis. ولكننا حين أردنا أن نشتق صيغة الداء نفسها من اللون الأخضر مقابل chlorosis أو الأحمر مقابل erythrosis، وجدنا أنفُسَنا أمام لفظة "خُضار" وهي مشهورة في الاستعمال لتلك الثَمَرات الخضراوات، ولا يمكن أن يخطر بالبال غيرُها، ثم أمام اللفظة الأخرى — الحُمَار — التي لا يتبادر إلى الذهن منها إلا ذلك الحيوان الأعجم الصابر أياً ما كان السِّياق ! فكان لابُدّ من أن نعدل عنهما إلى "داء الاحمرار" و"داء الاخضرار".

*

وأما القضيَّة الثانية فهي قضيَّة التصويب. فنحن نعيش مرحلةً تتضارب فيها الآراء تضارُباً كبيراً بين فئتَيْن كبيرتَيْن: فئة المعسِّرين وفئة المُيسِّرين.

وإنَّك لواجدٌ في ما يصحِّح هؤلاء وأولئك، مما يعتبرونه من أغلاط العامَّة والخاصَّة، تبايُناً كبيراً، يختلف باختلاف المستوى الصَّوَابي الذي يتَّخذونه ويلتزمون به، أي المعيار اللغوي الذي يحدِّد الصواب فيرضى عنه، ويحدِّد الخطأ فيرفضُه. بل إنّك لتجد بعضَهم يردُّ على بعض في تصويب بعض ما خطّأه، أو تخطئة بعض ما صوَّبه.

ومقياسُ الصواب عند المتشدِّدين المعسِّرين هو الأفصح، وما عداه لَحْن. وهو عند المخفِّفين الميسِّرين؛ كلُّ ما تكلمت به العرب، وما قِيسَ على كلام العرب فهو الصواب. ويلخّص هذا الموقف الأخير قولُ ابن هشام اللَخمي في "المدخل": "رَوَى الفرَّاء أن الكسائي قال: على ما سمعتُ من كلام العرب، ليس أحدٌ يَلْحَن إلا القليل؛ وقال الأخفش عبد الحميد بن عبد المجيد: أنْحَي الناس مَنْ لم يُلحِّن أحداً؛ وقال الخليل: لغة العرب أكثر من أن يَلْحَن متكلِّم". ومثلُ ذلك قولُ ابن جني في "الخصائص": "فالناطقُ على قياس لغة من لغات العَرَب، مصيبٌ غيرُ مخطئ، وإن كان غيرُ ما جاء به خيراً منه". وقولُ ابن السيِّد في الاقتضاب: "وقد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلُّها صحيح، فلا وَجْهَ لإدخالها في لحن العامة من أجل إنكار الأصمعي لها".

وبعدُ، فأنتَ مستطيعٌ أن تَسْلُكَ الذين كتبوا في لحن العامّة وتقويم اللسان وإصلاح الفاسد، في القديم والحديث، في إحدى فئتَيْن اثنتَيْن:

فئةٌ تُقَرَّع الذين ينحدرون عن مستواها الصَّوَابي تقريعاً، وتخاطب الذين هم مخطئون في نظرها بلهجة كلُّها تَعَالٍ وأفعالُ أمر وزَجْر: قُلْ ولا تَقُلْ! فتُشعر المخاطَبين من العامَّة بالخزي والتقصير، وتكاد تقضي على كلِّ أمل لهم في أن يُحسنوا التحدُّث باللسان الفصيح يوماً ما.

وفئةٌ تخاطب العامَّة بالتي هي أحْسَن، وتتخيَّر من كلامهم ما يمتُّ إلى الفِصاح بسبب، فتسلِّط الضوء عليه وتلفت النظر إليه. فتبعث في نفوسهم الأمل بأنهم من اللغة الفصيحة قابَ قوسين أو أدنى، وتُرَغِّبهم في اقتحام العَقَبة ترغيباً. وشتَّان ما بين الفئتين.

والمؤسف أن جُلَّ من كتبوا في الماضي والحاضر ينتمون إلى فئة الذين ينهون عن المنكر بغير المعروف، حتى يكاد ينطبق عليهم قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: "إنَّ منكم منفِّرين"، وأنَّ قُلَّهم يندرجون في فئة الذين يلتزمون الهدْيَ النبويَّ الكريم: "يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا.

هَلْ نقفُ هنا ؟ أم ندعو إلى فئة ثالثة تخاطب جمهورَها بقولها: **"قُلْ ولا حَرَجَ!"** اقتداءً بهَدْي سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيامَ مِنىً؛ فقد روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أنَّه: "ما سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء قُدِّمَ ولا أُخِّر، إلا قال: افعلْ ولا حَرَجَ".

وإذا كانت الجماعة اللغوية العربيَّة قد خرجت كلُّها كثيراً، ثم خرج أفرادُها الشعراء على القواعد النافذة في اللغة لوجه الجَمَال، معبِّرين عن هذا الجمال تارةً بما يستخفّون في مقابل ما يستثقلون، أو بمحاكاة الصيغة، أو بالاتباع، أو بغير ذلك من التعابير التي لا تخرج عن مفهوم الجمال: جمال العبارة... فَلأنْ تخرج الجماعة اللغوية كلُّها أو أفرادُها العلماء على بعض القواعد النَافذة في اللغة في سبيل الدِّقَّة العلمية، أوْلَى!

استَمِعْ مثلاً إلى ما يقوله ابن جني في "الخصائص"؛ يقول: "من التدريج في اللغة قولُهم "دِيْمة" و"دِيَم"، واستمرارُ القلب في العَيْن إلى الكسرة قبلَها، ثم تجاوزوا ذلك لما كثُر وشاع إلى أن قالوا: ديَّمت السماء ودوَّمت. فأما "دوَّمت" فعلى القياس، وأما "ديَّمت" فلاستمرار القَلب في ديمة ودِيَم... "إلى أن يقول: حملُهُ على الإبدال أقوى؛ ألا ترى أنه قد حُكِيَ في مصدره "دَيْما"، فهذا مجتَدَبٌ إلى الياء، مُدَرَّج إليها، مأخوذ به نحوها!".

ومثله ما جاء في "القاموس" في مادة "شَ وَ فَ": "والشِّياف (ككِتاب): أدويةٌ للعين ونحوهَا؛ وشيَّف الدواء: جَعَلَه شِيافاً".

وقد أخرج الدارقُطني عن جُوَيْرية عن مالك عن الزُّهريّ، أن السائب بن يزيد أخبره، قال: "رأيتُ أبي يُقيِّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر".

فأنتَ ترى حرصَ الجماعة اللغوية على الدقَّة العلمية في التمييز بين "دوَّمت" من التدويم بمعنى: استدارت، وبين "ديَّمت" السماء من الدِّيمة؛ وعلى التمييز بين "شَوَّفَ" بمعنى "زَيَّن"، وبين "شيَّف" بمعنى: جعل الدواء شِيافاً؛ وبين "قوَّم" بمعنى جعل الشيء قويماً، وبين "قيَّم" بمعنى: قَدَّر قيمته.

ثم تسمع من يؤنِّبك: قُلْ تقويم ولا تَقُلْ تقييم!

ثم تعود إلى ما قال ابن جني؛ فتراه يلمَحُ ملمحاً رائعاً في قوله: "فهذا مُجْتَدَبٌ إلى الياء.." لله درُّه على هذا الإحساس الرَّهيف! فكأن بنيان العربية في نظره ليس ببنيان راكد خامل، ولكنه بنيان متفاعلٌ حَرِك.. فيه ساحاتُ جاذبية تجذب البِنَى المتشابهة فترصُفُ بعضَها إلى بعض، وفيه مستويات مختلفة من التعبير تَتَوائَبُ بينها الكَلِم استجابةً لسطوة الجمال أو لسلطان النَغَم، كتلك المستويات المختلفة من الطاقة في نواة الذرَّة، تَتَوائَبُ بينها الذُرَيْرات من جرّاء سطوة طاقة خارجية ترتفع بها من مستوى إلى آخر، مثلما يحدث عندما تتكوَّن النَّظائر المُشِعَّة في الطبيعة على سبيل المثال. فالتقييم – إن شئنا – نظير مُشِعٌ لابُدّ أن يتكوَّن ليفترق افتراقاً واضحاً عن نظيره التقويم!

ومن أمثلة ما عَدَلَتْ به العرب عن الأصل، للتفرقة والفصل بين معنى ومعنى، تصغيرُ الأسود (اللون) على "أُسَيِّد" والأسود (الحيَّة) على "أُسَيْوِد"، وقالوا كذلك في اسم العَلَم "حَيْوَة" تمييزاً عن "الحيَّة" الثعبان، وقالوا في تصغير عيد "عُيَيْد" تاركين "عُوَيد" لتصغير "عود".

ومن أمثلة مزاولة الجماعة اللغوية للخروج على القياس في سبيل الجمال، أنَّ الكوفيّين أجازوا قلب الياء الأصلية واواً، فأجازوا في تصغير شيخ "شويخاً" كما أجازوا قلب الألف المنقلبة عن ياء واواً، كما في ناب و"نُوَيْب" واستدلوا على ذلك بأنه قد سُمِعَ "بويضة" تصغيراً لبيضة. وقالوا كذلك "عُوَيْنة" في تصغير العين. ولا شك في أن الكوفيين قد جنحوا لذلك استخفافاً، لخفة النُّطق بالواو بعد الضمَّة، واستثقال النطق بالياء بعدها، إذ الضمَّة والواو أختان متجانستان، أما الضمَّة والياء فمتنافرتان.

ومما يُغيِّر لوجه الجمال تارةً ولوجه الدقَّة العلمية تارات: بابُ النسب. والأمثلة على ذلك لا تكاد تُحصَى، حتى لقد شاع قولُهم: "النِّسبة صيغةُ شذوذ وتغيير"! فالنَسَب في الناس إلى "الحَرَم" حِرْمي، فإذا كان في غير الناس قالوا: ثوبٌ حَرَمي.

والمَرَئي منسوب إلى امرئ القيس على غير قياس، وكان قياسه: "مَرْئي" ولكنهم أخرجوه على هذا الوزن ليفرِّقوا بينه وبين ما يُرى. والنسبة إلى بني بكر بن عبد مناف "بَكْري" وأما بنو بكر بن كلاب فالنسبة إليهم "بكراويّون". و"العَمْريّ" بالفتح نسبة إلى عَمْرو. و"العَمْرَويّة" فرقة من المعتزلة منسوبون إلى عمرو بن عُبَيْد.

ومن أمثلة ذلك في عصرنا هذا ضرورة النسبة إلى الجمع بلا حَرَج، للتمييز مثلاً بين ما هو منسوب إلى مجموعة الدول وهذا هو "الدولي" وبين ما هو منسوب إلى الدولة ومؤسساتها. وقد أجاز مجمع القاهرة هذا النسب عند إرادة التمييز. ثم لابُدّ من "بيضي" مثلاً لما نريد نسبته إلى مادة البيضة، ونقول "بيضَويّ" أو "بيضاوي" لما نريد نسبته إلى شكل البيضة، ونقول "بَيْضاني" لشكل يشبه شكل البيضة ولكنه لا يطابقه.

ونقول "حمرائي" في النسبة إلى النواة الحمراء، و"حمراوي" في النسبة إلى الكريَّة الحمراء. ونقول "سودائي" في النسبة إلى النواة السوداء تمييزاً عن المِزاج الذي يقال له المزاج "السَّوْدَاوي"، اقتداء بالكوفيّين الذين أجازوا إقرار همزة التأنيث في التثنية للفظ "حمراء" الذي وَرَدَ مثنّاه "حمراءان"، بل قاسوا عليه.

والأمثلة في باب النسبة لا تكاد تُحصى، منها على سبيل المثال العضو الذي نسمّيه "الاثنا عشري"، فليس يخفى مبلغ اللَبْس الذي يمكن أن يحصل لو اتّبعنا فيه القاعدة التقليدية في النسب إلى الاسم المركب فقلنا "الاثنيّ".

*

أما بعد،

فقد سُئِلَ الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه عن مسألة، فقال: "إني لأَجدُ بيانها في قلبي ولكن ليس ينطلق به لساني". وأنا لا أدري أأحسنت الإبانة عمّا يعتلج في نفسي أم أسأت، ولكنّي أردتُ أن أقول إن هذه العربية قد أثبتت في ماضيها وحاضرها، وستُثبت في مستقبلها إن شاء الله، قدرتها العجيبة بما أودع الله فيها من

بيان، على أن تُعبِّر عن أيّ علم من العلوم مهما كان معقَّداً أو مُبتدَعاً، بياناً واضحاً دقيقاً، وسهلاً ميسوراً في الوقت نفسه، ما دام الذي يكتب بها أو يتحدَّث، فاهماً لما يُريد أن يُفهمه للناس، متمتعاً بملكة "البيان" التي يستطيع بها أن يُعْرِبَ عن علمه هذا بأسلوب مُبِين، يُبين للقارئ أو السامع ما أراد أن ينقله إليه من علمَ، دون أن يُرهقه ذلك من أمره عُسْراً.

وهذا يتطلَّب من الكاتب أو المتحدِّث أن يكون متمكِّناً من ذلك، مُجيداً لهذه اللغة التي لم تعجز أن تعبِّر عن مُعجِز الكلام وآيات الله الخالدات، وحاشاها أن تعجز عن التعبير أجملَ تعبير وأوضحَه وأيسَرَه، عن جزء متواضع من أفكار الناس في حِقبة متواضعة من الزمان.

*

باركَ الله في هذا المجمع العريق وفي عطائه، وجَعَلَ يومَه خيراً من أمسِه وغَدَهُ خيراً من يومه، وأيّدهُ بمَدَدٍ من عنده، وأنجحَ مسعاه في خدمة لغة التنزيل العزيز.

﴿ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا، ولِيوفِّيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون﴾